مأزق النخب القديمة

أحمد الحبيشي

اثناء زيارته لمحافظة حضرموت أواخر شهر مايو المنصرم شدد فخامة الرئيس علي عبدالله صالح رئيس الجمهورية على ضرورة امتلاك ناصية المعرفة العلمية كشرط لتجاوز فجوة التخلف و مواجهة تحديات الحقبة الراهنة من عصرنا الذي يموج بمنجزات ثورة تكنولوجيا الاتصالات والمعلومات.

والحال ان ما جاء على لسان فخامته اثناء زيارته لبعض جامعات محافظة حضرموت لم يكن مفاجئا، ولم يصدرعن فراغ، كما انه لم يكن كلاما للاستهلاك بحسب تعليقات بعض صحف المعارضة ومواقعها الأليكترونية، إذ دشنت حكومة المؤتمر الشعبي العام برئاسة الأستاذ عبد القادر باجمال - قبل عامين تقريبا - المرحلة الأولى من مشروع طموح تبناه ووضع خطوطه الرئيسية فخامة الرئيس علي عبدالله صالح رئيس الجمهورية يهدف إلى تعميم استخدام الحاسوب الآلي، وتيسير اقتنائه من خلال إعفائه من الرسوم الجمركية، وبيعه على أقساط سهلة الدفع، وتوفير خدمات الانترنت مجاناً للطلاب والشباب، وسائر الفئات والشرائح الاجتماعية الأخرى، وصولاً إلى تهيئة المجتمع المدني للدخول إلى فضاء المعلومات والاندماج في العالم الجديد.

ربما يكون هذا المشروع قد تأخر قليلاً، قياساً ببعض البلدان العربية لأسباب موضوعية لكن البدء بتنفيذه وظهور نتائجه الايجابية على نحو ما لمسناه طوال العامين الماضيين يجسد إدراك القيادة السياسية لأهمية وضرورة التفاعل مع معطيات عصر المعلومات والاندماج فيه بأسرع وقت ممكن.

الثابت أنّ تكنولوجيا المعلومات تفاعلت على نحو مثير للدهشة مع غيرها من المعطيات المادية والمعرفية التي أفرزتها تكنولوجيا الصناعة والزراعة والطب والدواء والنقل والمواصلات والفنون والتعليم والإعلام، ثم فتحت بعد ذلك أفقاً واسعاً لولادة شبكة معقدة من العلاقات البنيوية بين مختلف الفئات الاجتماعية والمهنية والمنظومات السياسية والاقتصادية، وتوليد قدرات معرفية جديدة تساعد على إعادة اكتشاف عالم الواقع، وتعميق معرفتنا بهذا العالم وبذاتنا وبغيرنا، وتنمية قدراتنا الذهنية، وتسريع عملية اكتساب الخبرات وكسر احتكار النخب الثقافية والسياسية القديمة للمعرفة.

لا ريب في أنّ التعامل مع هذه المعطيات يقتضي تخليص النخب الثقافية والسياسية القديمة من عزلتها الرهيبة عن متغيرات العصر المتسارعة وحقائقه الجديدة غير المسبوقة، وإعادة بناء الجهاز المفاهيمي لمختلف التيارات الفكرية والسياسية بما يؤهلها لتجديد طريقة فهمها للعالم وتصويب مواقفها السياسية من أحداثه ووقائعه ومتغيراته.

لا يجوز إنكار ما أحدثته تكنولوجيا الاتصال والمعلومات من تحولات جذرية في مفهوم الثقافة وبُنيتها ووظائفها، بما في ذلك انعكاس هذه التحولات على المثقف نفسه. ومما له دلالة عميقة أن يتزامن ظهور معطيات ثورة تكنولوجيا المعلومات والاتصال في نهاية العقد الاخير من القرن العشرين المنصرم مع سقوط الاتحاد السوفييتي والمنظومة الاشتراكية الدولية بمختلف أطيافها، جنباً الى جنب مع فشل المشاريع القومية، وانتكاسة المشروع الراديكالي المشترك للحركات الإسلامية المتطرفة والمعتدلة في آن واحد نتيجة فشلها في قراءة التاريخ ومعرفة إشكاليات علاقتها بالواقع المحلي والبيئة العالمية، بالاضافة إلى انعدام المبادرة والقدرة على الفعل من لدن كافة التيارات السياسية والفكرية التي رفعت خلال النصف الثاني من القرن العشرين شعارات الاشتراكية والوحدة العربية والتنمية المستقلة والدولة الإسلامية.

لا ريب في ان هذه الأحداث والمتغيرات تشير الى أنّ المجتمعات البشرية لا تتشكل من خلال الآيديولوجيا أو السياسة أو الاقتصاد بمعزل عن مفاعيل الحراك المتبادل بين الأفراد والجماعات والمؤسسات من جهة، وبين الواقع المحلي والبيئة العالمية من جهة أخرى.. وبوسعنا القول إنّ تكنولوجيا المعلومات تنطوي على حوافز هائلة لتعظيم دور هذه المفاعيل بفضل سيولتها ومرونتها وقدرتها السريعة على إحداث عمليات تغيير ذات أبعاد جذرية خلال وقت قصير في مختلف المجالات الاقتصادية والاجتماعية والثقافية والعلمية، الأمر الذي يؤثر على بُنية المجتمع الإنساني بصورة مباشرة.

ثمّة من يصف القرون الأربعة الماضية منذ انطلاقة الثورة الصناعية الأولى والثانية والثالثة، بعصر الحداثة فيما يتم وصف ثورة تكنولوجيا الاتصال والمعلومات التي تزامنت مع ولادة الألفية الميلادية الثالثة بعصر ما بعد الحداثة.. ولئن كانت تكنولوجيا الصناعة قد أفرزت الدولة القومية والاقتصاد الرأسمالي والاستعمار وأسواق المال وحروب الإبادة الجماعية على امتداد القرون الأربعة الماضية، فمن غير المستبعد أن يتغير شكل ومحتوى المجتمع البشري تحت تأثير تكنولوجيا المعلومات، خصوصاً في البلدان النامية والفقيرة.

في هذا السياق خلص التقرير السنوي لليونسكو لعام ٢٠٠٠م إلى التأكيد على أنّ الخيال السياسي والاجتماعي في مجتمعات البلدان النامية والفقيرة يتسم بالخمول والاغتراب عن التحولات العميقة التي تحدث على الصعيد الواقعي في البلدان المتقدمة بتأثير الخيال العلمي، وهو ما يفسر جانباً من أسباب تخلف المؤسسات السياسية والاقتصادية والاجتماعية والتعليمية في مجتمعات البلدان النامية والفقيرة، واغترابها عن المخرجات الثقافية لثورة العلم والتكنولوجيا، التي تتجسد في غياب - او تغييب - البعد الثقافي عن مظاهر الحداثة السطحية في حياة هذه المجتمعات، الامر الذي يستوجب ضرورة إعادة صياغة العلاقة بين الإنسان والمجتمع والعالم، على أساس المعايير الحديثة لثقافة المعلومات، وبما يؤمن التفاعل الحي مع عالم الفضاء المعرفي والاندماج فيه، وامتلاك المبادرة والقدرة على اتخاذ القرارات وبلورة الخيارات.

> النخب المثقفة القديمة في العالم العربي آلت إلى وضعٍ مأساوي من العجز والإفلاس، بموازاة الدور الذي توخت إنجازه من خلال قيادة المجتمع وتبني مشاريع النهضة والتحديث.. واللافت للنظر أنّ هذه النخب استقرت على أفكارٍ قديمة ومشاريع بالية، واكتفت بدور شرطي الحراسة لتلك الأفكار.

> حين يصل المثقفون إلى مأزق حاد، بسبب عجز الأفكار عن إنتاج المعرفة بالواقع، تفشل تبعاً لذلك العجز كافة المشاريع التي تصاغ على أساس تلك الأفكار.. وهي نتيجة طبيعية ما كانت لتحدث لولا انتقال المثقف من وظيفة الاشتغال بالتفكير وإنتاج الأفكار إلى الاشتغال في مهنة الدعاية وحراسة الأوهام و تسويق الشعارات الشعبوية والوعود الجاهزة والمطلقة.

من نافل القول إنّ النخب المثقفة والسياسية القديمة اكتسبت مشروعيتها خلال القرن الماضي من انسلاخها عن بيئة الأمية الأبجدية والثقافية.. وعلى تربة هذا الانسلاخ مارست هذه النخب وظائفها (الدعوية والدعائية) بصرف النظر عن فشل المشاريع والأفكار التي دعت إليها وتولت مهمة حراستها .. بيد أنّ المعايير الخاصة بالأمية الثقافية والسياسية تغيرت اليوم، حيث يتوقف الانتساب إلى ثقافة المعلوماتية - وهي غير نخبوية بطبيعتها - على محو أمية التعامل مع الكمبيوتر ونظم المعلومات، ومحو أمية الشكل والرمز وأمية الثقافة العلمية.. وهو ما يوحي بأفول عصر النخب المثقفة القديمة التي كانت تشتغل على الآيديولوجية والخطابة والتعبئة والتحريض!

لم يعد خافياً أنّ النخب المثقفة سواء أكانت دينية أو قومية أو ليبرالية أو يسارية او يمينية، تصدت على مدى مائة عام لأسئلة النهضة وصدمة الحداثة الأولى ولم تتمكن من بلورة إجابات حاسمة على إشكالياتها وتناقضاتها، ثم بلغت ذروة مأزقها في نهاية القرن العشرين وأوائل القرن الحادي والعشرين لتواجه أسئلة صدمة ما بعد الحداثة الثانية، وتحديات عصر العولمة وثورة المعلومات دون أن تتمكن من الإجابة عن أسئلة الصدمة الأولى.

والحال أنّ تحولات عصر العولمة ومعطيات ثورة المعلومات طالتا الثقافة - وبالتالي فاعليها وهم المثقفون - حيث يتشكل عالم جديد بطريقة غير مسبوقة، بالتزامن مع ولادة ثقافة إنسانية جديدة بطريقة مختلفة، فيما تتغير علاقة الإنسان بعالم الحقيقة الواقعي انطلاقاً من التغيير الحاصل في معايير الأمية والمعرفة، وما يترتب على ذلك من ضرورة إعادة صياغة العلاقة بين دور فاعلي الثقافة وسائر الفاعلين الاجتماعيين في المجتمع.

وعليه بوسعنا القول ان دعوة الرئيس في حضرموت قبل اسبوعين الى ضرورة تمكين الشباب من امتلاك ناصية المعارف العلمية والتكنولوجية الحديثة، لا يمكن فصله عن الأبعاد الاستراتيجية للمشروع الذي بادر إليه فخامته قبل سنتين عندما وجه الحكومة لتعميم وتيسير فرص استخدام الكمبيوتر وتوفير خدمات الانترنت بالمجان، ومن واجبنا - استنادا الى ذلك - أن نطرح عدداً من الأسئلة التي تتعلق بمستقبل النخب المثقفة القديمة التي كانت ومازالت فاعلاً أساسياً في مختلف الأزمات والإخفاقات الناجمة عن فشل وتعثر المشاريع السياسية والفكرية القديمة، وتتحمل الجزء الأكبر من المسؤولية عن المأزق العربي الراهن والذي وصل إلى أخطر مراحله ((حيث تشعر القوى الحية في هذه الأمة العربية بأنها ولدت لتهزم، وولدت لتخسر، وولدت لتكتشف أنّ حساباتها تنتهي في معظم الأحيان إلى سلسلة من المغامرات القاتلة والمراهنات الخاسرة، ثم تدرك بعدها أنّ الوضع العربي لم يتهيأ لتحديات الحضارة الحديثة، ولم يتهيأ لمواجهة صراع الإرادات والقوى مع دول العالم، ولم يتهيأ بأسباب العلم وإدارة الأزمات)) بحسب ما كتبه المفكر الكويتي شفيق ناظم الغبراء في صحيفة «الحياة» اللندنية قبل اكثر من ثلاث سنوات بتاريخ ٢٩ يناير ٢٠٠٣م .

يقيناً أنّ النخب المثقفة القديمة في العالم العربي آلت إلى وضعٍ مأساوي من العجز والإفلاس، بموازاة الدور الذي توخت إنجازه من خلال قيادة المجتمع وتبني مشاريع النهضة والتحديث.. واللافت للنظر أنّ هذه النخب استقرت على أفكار قديمة ومشاريع بالية، واكتفت بدور شرطي الحراسة لتلك الأفكار، وتصر في الوقت نفسه على الدوغمائية في التعاطي مع الجهاز المفاهيمي لتلك الأفكار والمشاريع وما ينطوي عليه هذا الدور من خطاب شعاراتي شعبوي و تحريضي و دعوي، متجاهلةً حقيقة أنّ المثقفين لا يصنعون عالم السياسة والاقتصاد في هذه الحقبة من عصرنا الراهن بواسطة الآيديولوجية والنظريات السياسية، بقدر ما يصنعه فاعلون اجتماعيون آخرون مثل العلماء في المختبرات والمعامل ورجال الأعمال في الأسواق، ومهندسو البرمجيات ولاعبو الكرة ونجوم الغناء وحواريو الفضائيات الجادة وقادة المصارف والمؤسسات الإعلامية الخ.

لم يُعد بوسع النخب المثقفة تنصيب نفسها لممارسة الوصاية على الثورة والحرية والحقيقة والدين والعقل.. ولا يحتاج المرء إلى جهد كي يقتنع بأنّ هذه النخب فشلت في كل مشاريع التغيير التي بشرت بها وسعت إليها وغرقت في أوهامها، وعزلت نفسها عن العالم بعد أن داهمتها الصدمات والمفاجآت والهزائم!!.

قد يكون هذا الاستنتاج قاسياً ومؤلماً، لكن الجهر به يستمد ضرورته واهميته من المأزق الذي وصلت اليه النخب المثقفة القديمة بعد ان تكلست وعجزت عن إنتاج المعرفة بالإنسان والمجتمع والعالم.. وما من شك في أنّ هذا العجز يعود إلى حقيقة أنّ مشكلة هذه النخب المثقفة القديمة لم تكن مع الإنسان أو المجتمع أو العالم، بل مع أفكارها.. فمهمة المثقف تتحدد في الاشتغال على الأفكار واجتراح طرائق جديدة للتفكير، وإنتاج أدوات تحليل معرفية تتيح إنتاج أفكار واقعية وفاعلة وقابلة للتطبيق..!

وحين يصل المثقفون إلى مأزق حاد، بسبب عجز الأفكار عن إنتاج المعرفة بالواقع، تفشل تبعاً لذلك العجز كافة المشاريع التي تصاغ على أساس تلك الأفكار.. وهي نتيجة طبيعية ما كانت لتحدث لولا انتقال المثقف من وظيفة الاشتغال بالتفكير وإنتاج الأفكار إلى الاشتغال في مهنة الدعاية وحراسة الأوهام و تسويق الشعارات الشعبوية والوعود الجاهزة والمطلقة .

نقلاً عن / صحيفة «٢٦ سبتمبر»

الشرق الأوسط وثنائية الاستبداد والتطرف

ثمة قوتان اثنتان فاعلتان في الشرق الأوسط، هذا ما يراه باحثون غربيون ينطلقون من أن هذه المنطقة الجيوسياسية المهمة والخطيرة انتهت- في تاريخها الحديث على الأقل منذ نهايات الحرب العالمية الثانية- إلى تشكل نُظما سياسية تسلطية استبدادية من طرف، وتيارات إسلامية أصولية جهادية وتكفيرية من طرف آخر. ومن هؤلاء "ناتان شارانسكي"، الذي أنجز كتاباً يحمل عنوان (الدفاع عن الديمقراطية). أما الفكرة التي يضيفها الكاتب المذكور إلى الأطروحات المذكورة فتقوم على أن "الدولة اليهودية" في المنطقة المذكورة، تمثل تحدياً جدياً وحاداً لتلك النظم الاستبدادية.

ومع الإشارة إلى أن القوتين المعنيتين تسجلان- في وجودهما- تاريخاً أقدم من وجود ظاهرة العولمة الراهنة، إلا أنهما تدللان على علاقة وظيفية بينهما وبين هذه الظاهرة. ولعلنا نرى، إلى ذلك، أن القوّتين المذكورتين (أي الأصولية الإسلامية والنظم التسلطية في المنطقة)، ليستا بعيدتين عن التأثر بنشأة الدولة اليهودية وباستمرارهما، بقدر ما ظهر تأثير تينك الأخيرتين في استمرار الدولة إيّاها!

د. طيب تيزني

تلك كانت أطروحة مركبة نلاحظ تعددية في الأطراف التي تصوغها، داخلاً وخارجاً. والمهم من الناحية المنهجية التاريخية والسياسية في ذلك نراه في شبكة علاقات التأثير والتأثر بين هذه الأطراف. فمن ناحية أولى، نجد أن بواكير المشاريع الوطنية الإصلاحية في البلدان التي حققت استقلالاتها حديثاً، تواجه تحديات جديدة من موقع الانقلابات العسكرية، التي اندلعت فيها، إضافة إلى التدخلات الاقتصادية والسياسية في بعض شؤونها من قبل دول غربية استعمارية (خصوصاً بريطانيا). وكان المشروع الصهيوني وجهاً من أوجه التحديات المذكورة، بحيث إن الإخفاق في مواجهته وجد مباشرة منعكسات سلبية متصاعدة في العالم العربي: لقد ظهر وضع مثير قام على أن إنجاز مهمات الاستقلال في البلدان العربية أصبح -شيئاً فشيئاً- مشروطاً بمواجهة المشروع المذكور، الذي شكّل منذ ذلك الحين فصاعداً خط استفزاز وتحدياً نارياً لها، ومن ضمنها نظمها السياسية المحدّدة آنفاً بكونها تسلّطية استبدادية.

في تلك الوضعية العربية المركبة والمعقّدة، راح يتضح أن مواجهة المشروع المعني، تستوجب وجود حراك سياسي ضمن عملية متقدمة من التنمية الاقتصادية ومن التأسيس الاستراتيجي العسكري، وهذا كان يتجه نحو الإخفاق في ظل نُظم سياسية عاجزة، ومشغولة في التأسيس الاستراتيجي لتحوّلها إلى نُظم بوليسية، ثم إلى "دول أمنية" سترفع شعارها الحاسم لاحقاً، وهو: أن يُفسد من لم يُفسد بعدُ، بحيث يتحول الجميع إلى مُفسدين مدانين تحت الطلب. ويتضح في هذا السياق واقع يتعاظم عمقاً وسطحاً ويتمثل في أن نظماً استبدادية فاسدة هي -في أساسها البنيوي- دون مستوى مواجهة المشروع الصهيوني، ودون مستوى الإجابة عن المعضلات المطروحة في بلدانها، ومن ثم دون تحقيق ما طرحوه في الإعلام العربي نفاقاً وتحت عنوان: "التوازن الاستراتيجي مع إسرائيل".

وعلى هذا، استمرت إسرائيل وحققت انتصاراً مُهيناً للعرب عام ١٩٦٧، باستمرار تلك النظم العربية، التي أعلنت بمناسبة ذلك "الانتصار" أنها معنية باستمرارها بصيغ "تقدمية وحدوية اشتراكية". واكتشف الفريقان حدود اللعبة: البقاء والاستمرار والمساومة. في هذا وذاك، كانت القوى الحية في الشعوب العربية تجد نفسها وقد أخذ الإحباط والخوف والرعب يجتاحها، ليُفضي ذلك- في عمومه- إلى إنتاج أنماط من الهجرة في أوساط هذه الشعوب.

لقد أسقطت الرهانات على أي فعل عربي وقطري، خصوصاً حين اكتملت الدراما بتدمير الأسس الأولى للتضامن العربي. وراحت القوى الأصولية الدينية تقدم نفسها بوصفها "رهان الخلاص" من خلال مشاريع تُشعل النار في المجتمعات العربية، وتتجه نحو "الغرب- هكذا على عواهنه"، الذي اعتُبر الحامي القوي للنظم المذكورة× لكن اللعبة بدأت تُحاك من موقع هذا الأخير باتجاه اختراق الأصولية المذكورة، وذلك على النحو التالي: القوى الغربية المعنية تُسعّر تلك الأخيرة في الداخل، وتطلب ودّها في الخارج. وهذا، بدوره، قدم ورقة جديدة لسدنة النظم إياها، التي راحت تخربط الرؤية العلمية لتلك الأصولية. كيف؟ بالنظر إلى هذه الأخيرة على أنها صنيعة "الاستعمار" -وهي في الحقيقة صنيعة الداخل العربي الإسلامي الفاسد والمفسد برعاية تلك النظم- وجاءت الكلمة الفصيحة من هذه النظم في خطابها لمواطنيها: العدوّ أمامكم (وهو هنا القوى الشعبية الحية القادرة على اجتراح مشاريع نهضوية)، والبحر وراءكم (وهو هنا القوى الأصولية الظلامية)! وجاء، أخيراً، النظام العولمي، ليحافظ على هذه التركة الثمينة، مع إعادة بنائها بمقتضى استحقاقاته الجديدة: تحويل القوى الأصولية الظلامية إلى "حصان طروادة" ضد النظم العربية، ومن أجل تثبيتها واستمرارها، معتبراً أن دائرة التاريخ العربي قد وجدت نهايتها!

نقلا عن جريدة "الاتحاد" الإماراتية

عبادة النصوص

باسم النبريص *

الأزمة التي يعاني منها العرب جميعاً ، هي أزمة بنيوية بكل المقاييس، لا أزمة في هذا الجانب، دون ذاك. وقد حاول العديد من مثقفيهم، فصل الموضوعي عن الذاتي، والتركيز على الأول، في مقارباتهم وسجالاتهم الفكرية، متحاشين الحديث والغوص في لُجج الثاني، أي الجانب الذاتي من الأزمة. وهو الجانب الذي تُجوهلَ كثيراً، في القرن الماضي، ولم يبدأ البحث والتنقيب فيه، إلا في العقود الأخيرة منه، ومطالع هذا القرن. لذا سنركّز، في هذا المقال السريع، على الجانب الذاتي من الأزمة. محاولين تلمّس الأسباب والدوافع، التي جعلت من ذاتنا، ما هي عليه، من صفات عمومية، لا تسرّ صديقاً ولا عدواً.

إننا نرى أن أزمة العرب في هذه الذات العربية أولاً. وللتدليل على ذلك، سنأخذ مسألة تقديس وعبادة النصوص. فهي، على ما نظن، جذر هذه الأزمة المستفحلة، والدافع المحرّك لها. فما من أمة تعبد نصوصها القديمة، كما نفعل نحن. وما من أمة، تستخفّ بقراءة الواقع من حولها، كما تفعل هذه الأمة. إننا نلوي عنق الواقع من أجل منطوق النصوص. حتى غدت النصوص، هي واقع العرب الوحيد، وحتى غداً " واقعهم الفعلي وواقع العالم من حولهم "، خارج عقلهم الجمعي!

فإذا أتينا إلى هذه النصوص، ماذا نجد؟ نجد لغة بالية، ومجموعة مفاهيم وتصورات قديمة، لا يمكن لعاقل، تدفعه رغبة الحضور السلمي في عالم اليوم، أن يأخذها على محمل الجد. فهي لغة تحتوي على مفاهيم وتصورات، غاية في العنف، وتنفي الآخر، ولا تعترف به، إلا كما يعترف السيد المتفوق بالعبد المطيع. لغة تأسست على الإكراه والقمع، والنظرة الأحادية، في جوانب كثيرة منها. ولغة، في أحسن الأحوال، حمّالة أوجه، تأتي الشيء ونقيضه في آن، معتبرة ذلك، ثراء لا نقيصة. لغة، اشتغل عليها المؤوّلون، عبر ألف وأربعمئة سنة، وأعادوا تفسيرها، بما يخدم مصالحهم ومصالح أسيادهم، وبما يُكرّس واقع التخلف والتبعية والتهميش، في عملية إنتاج لا تنتهي ولن تنتهي.

إلى درجة، تحوّل معها، الناطقون بها، إلا من رحم ربي، إلى منتوج لهذه اللغة، لا كائنات من لحم ودم، يجري عليها ما يجري على زميلاتها في العالم الواسع. فالعربي، كما نرى، صار منتوجاً لغوياً، بفضل سيطرة اللغة عليه، لا مُنتجاً للغة ولا فاعلاً فيها. أي صار مفعولَ اللغة بامتياز. ولعل هذا المعنى، لا يَبتعد أبداً، في مغزاه وفحواه، عن كلمة المفكر العربي، عبدالله القصيمي، بأن (العرب ظاهرة صوتية) لا أكثر.

كيف وصلنا إلى هذه الحال؟ وصلنا بفضل المؤولين والمفسرين والدعاة. وصلنا بفضل نظم تعليمنا القروسطوية. وصلنا بفضل، تماهي حراس النصوص بالله. فكل كلام يصدر عنهم، صار مقدساً هو الآخر. صار الوجه الثاني لله. صاروا هم محتكري الحقيقة المقدسة على الأرض. وكل من يخالفهم، يُكفّر، ويُطرد من الملّة، وينبذ، كما كان يُنبذ، قديماً، الجمل الأجرب.

ونحن نعرف، بداهةً، أنه، كلما حضرت القداسةُ، غاب العقلُ. فلا قداسة مع العقل ولا عقل مع القداسة، ذلك أن الأخيرة، حجاب ونقاب وغياب، تحجب وتنقّب وتغيّب العقل وأنساقه المعرفية والفكرية والنقدية.

ونعرف، تالياً، أن غيرنا، من رواد حضارتنا الكوكبية، لم يصلوا إلى ما وصلوا إليه، من تقدم ورقي وتنوير وتغيير، إلا حين نحوا نصوصهم المقدسة، جانباً، والتفتوا إلى الحياة، على غناها من حولهم، دون ثقالات أيديولوجية أو دينية، ودون حجابات من ماض. فقد كان ولاؤهم ، الأول والأخير، للحياة، بحاضرها ومستقبلها، لا للنصوص المتعالية. ولهذا تقدموا، ولهذا أيضاً تأخرنا.

إن العقل الغربي اليوم، بل منذ قرنيْن على الأقل، لا ينظر إلى مقدساته، في أحسن الأحوال، إلا كرموز وحاجة فطرية إلى إيمان حدسي، لا يستقيم الوجود بدونها. إنه يضعها فقط في هذا الإطار : الحاجة إلى قوة ما عليا، تؤمّن له نزوع النجاة من المجهول الغامض، وهي حاجة إنسانية أصيلة على العموم. أما في غير أحسن الأحوال، أي في الأغلب، فيتعامل معها، حسب قانون اللاأدرية، أو كأنثروبولوجيا، وكنصوص تاريخية، لا علاقة لها بالحقائق المطلقة المفارقة. إذ لا مكان لهذا النوع من الحقائق لديه، فكل شيء نسبي عنده، والحقيقة أشبه بالهرم المثلث، رؤيتك لها من جانب، لا تلغي رؤية الآخرين لها، من الجوانب الأخرى.

فإذا جاء مفكّر عربي، وحاول إنزال النصوص، من علياء ميتافيزيقيتها، إلى الواقع التاريخي، كما هو الحاصل مع نصر حامد أبو زيد، وغيره، فإن مآل هؤلاء، هو النبذ والطرد والتكفير. حتى ضاقت الأرض العربية، على خيرة مفكريها النجباء، فلم تتسع لهم، سوى دار أو (فسطاط الكفر)، بعيداً عن شرق المتوسط، هناك على جانبي المحيط.

لن أتكلّم ههنا، عن مضمون نصوصنا، المدغومة بحد السيف، لأننا كلنا نعرفها. بل سأتكلّم عن المؤسسات والجمعيات والمعاهد والوزارات القائمة على حراستها (حراستها من مَن؟ حراستها من كل من يخالفهم التأويل والتفسير!) وسأتكلم عن انحرافها البائن، بتفضيلها وتكريسها لنوع واحد من الفعالية الملغاة، وهو تربية العقل على النقل، لا النقد : على التلقين الحفظ لا التحليل : على التلقين والأسطرة. وحشوه بالمعرفة اللدنّية، لا المادية. أي تحويل العقل لدى المواطن العربي، إلى مستودع لحفظ النصوص الصفراء، كخطوة أولى، ثم تحويله، من " عقل " إلى " ذاكرة "، في الخطوات التالية.

إن نظرة هذه الأماكن، إلى الحياة، كفضلة زائدة، لا كأساس وغاية، لدى الفرد البشري، هو ما أوصلنا اليوم، إلى غربتنا واغترابنا عن العالم. بل هو ما أخرجنا من التاريخ، ومن الجغرافيا، لا بد، ذات يوم!

وما لم يوضع حدّ لها ولتخريبها، المعلن والمستتر، فلن نعبر الجسر، ولن نتجاوز النفق المظلم، متوجهين نحو النور والعقلانية والحضارة الحقة.

الطريق طويل لا شك، والزاد أقلّ القليل. والعرب، بمثقفيهم المتنوّرين، بدأوا الخطوة الأولى، في طريق الألف ميل، وعليهم أن يواصلوا، مهما أوحشت الطريق وقلّ الزاد. فلا مناص من ذلك، ولا طريق غير هذه الطريق.

فإما أن نظل أسرى النصوص ومفعولاتها، فنغيب عن أنفسنا وعن العالم، وإما أن نحضر في أنفسنا ونحضر في هذا العالم. ولا خيارات أمامنا، فعلى ما يبدو، انتهى الزمن الذي كان يتمتع العرب فيه، بترف ورفاهية الخيارات!

تحرير النفوس من سطوة النصوص - هذا هو الخيار المبدئي والأولي، وإن خذلني وجاء هذه المرة على هيئة شعار!

ملاحظة :

إذ أكتب هذه الكلمات، تأخذني الذاكرة، إلى الأفلام المصرية في الأربعينات والخمسينات من القرن الماضي، حيث كان المجتمع المصري، في أوج عافيته، متفتحاً ومنفتحاً على الحداثة والعصرنة وأحلام البناء والنهوض، فكان رجالات الدين (لاحظوا صورة المأذون في تلك الأفلام)، يُتعاملُ معهم، على نحو فكاهي نوعاً، ما يضحك الجمهورَ منهم، ومن لباسهم الفلكلوري، ومن لغتهم المتعاضلة الفصحى.

وإذ أكتب هذه الكلمات أيضاً، أتذكّر، حال ووضع رجالات الدين في إسرائيل، كيلا نبتعد ونتكلّم عن أماكن أبعد، فإسرائيل، التي قامت على أساس ديني، ضمن أساسات أخرى، تتعامل مع هؤلاء، على صعيد المجتمع بشرائحه المتعددة، كما لو كانوا أضحوكة أو ألعوبة، أي تتعامل معهم على نحو فكاهي، كمادة للسخرية البيضاء حيناً أو السوداء، أحياناً.

ماذا يعني ذلك؟ يعني أن كل مجتمع منفتح، حداثي وناهض، لا يأخذ هؤلاء على محمل الجد! فهؤلاء لا يُؤخذون على هذا المحمل، إلا في المجتمعات المنهارة، المجتمعات التي انهارت فيها الطبقة البرجوازية الوسطى، هذه الطبقة التي هي عماد أي مجتمع صحي وصحيح. والتي هي منتجة الوعي والفكر النقديين.

ولعل هذا ما يُفسر لنا، لمَ اجتاحت هذه التيارات، نسيج المجتمع العربي المأزوم، في الأربعة عقود الأخيرة. وتخللته، كما تتخلل النار، كومة قش، فهذا المجتمع، يقبع حوالي مئة مليون من سكانه، تحت نير الفقر والعوز والأمية الأبجدية. فكيف له، وقد سُدّت في وجهه، كل سبل العيش الكريم، ألا يلجأ لهؤلاء؟

* كاتب كويتي